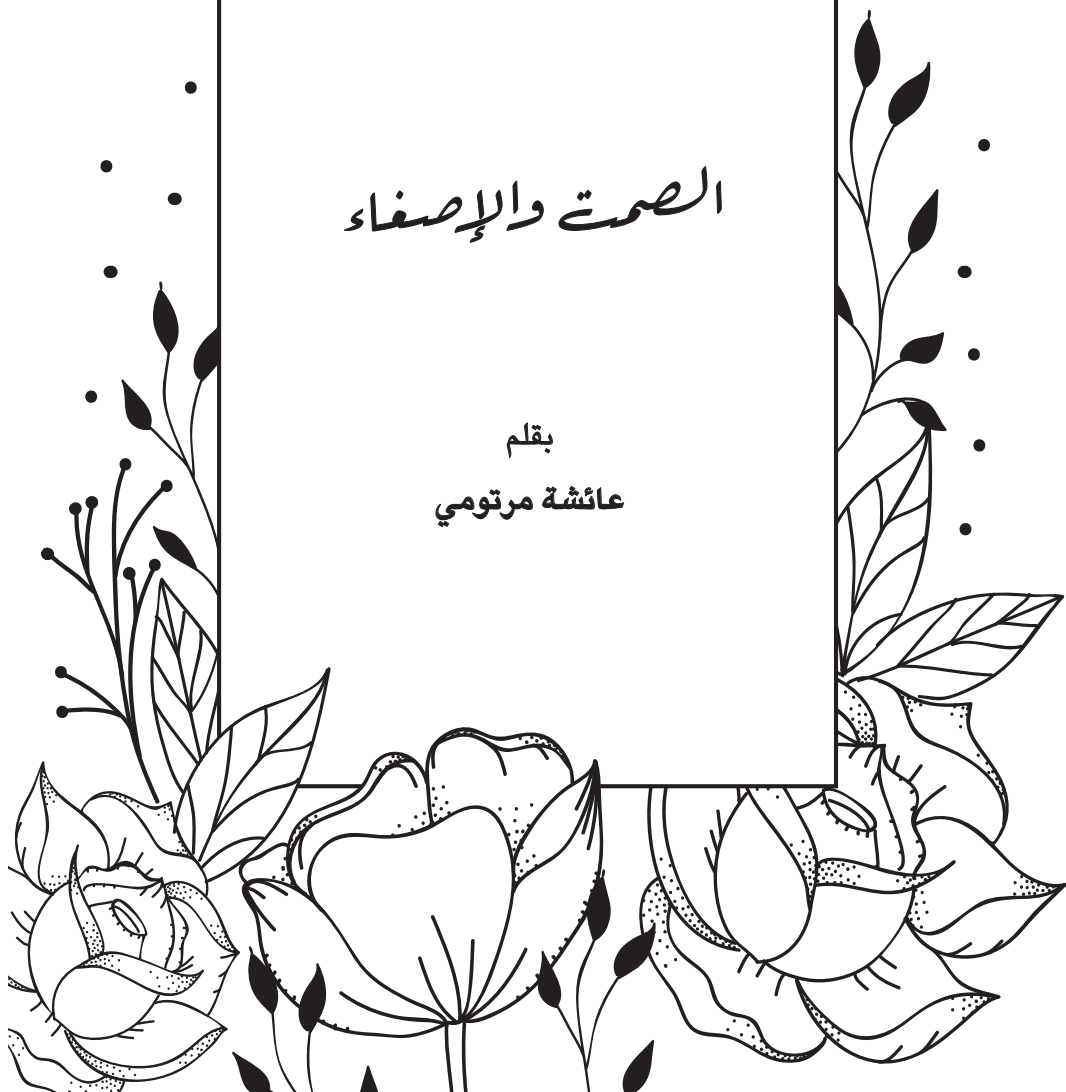


الصمت والإصغاء

بقلم
عائشة مرتومي





كنت في الشهر الخامس من حملي.. أخفي طفلي بين ضلوعي وأستأنس بحركاته العفوية من أي إحساس عابر للوحدة.. كان الجور طبا صيفيا حارا كبقية أيام شهر يوليو.. دخلت لأستحم وقد تركت حنفية الماء تملأ الحوض.. وضعت رجلي الأولى وأعقتها بالأخرى.. هممت بالاستلقاء.. فتذكرت الستار الفاصل بين الحوض ومكان وضع الثياب والمناشف.. مددت يدي وسحبته بعنف فقد كان عالقا بشيء ما، وعدت أدراجي لألهو كطفلة صغيرة تداعب الماء، ويا ليتني لم أفعل.. فحين سحبت الستارة العالقة عنوة.. سحبت معها خرطوم الغاز من السخان.. فقفزت إليه قبضة نار متبقية في جوف ذلك السخان اللعين الذي كان على موعد مع القدر؛ ليتعاوننا على ترك بصمة في صفحة تاريخي الشخصي، وعلى جسدي.. أعود بمرارة لذكر سيرورة الأحداث مجدداً.. فبعد أن انسل الخرطوم من مكانه والتهب، انتقلت النار إلى الستارة البلاستيكية وحاصرني كجدار ناري فر من قلب الجحيم، ليحضنني ويحشرني بين الماء ونقيضه؛ بين الحوض والنار الملتهبة.. آه.. على جسدي وما قاساه يومها! تلك الجراح العميقة التي تذكرني بها المرايا العاكسة أينما قابلتني صدفة.. هي التي تحثني على الاستمرار في السرد لعل دموعي التي تنساب مني برطوبتها تسحب جزءاً من آلام استوطنت ذاكرتي وروحي

وجسدي.. فبعد اشتعال النيران في ستار الحمام.. حاولت الهروب ركضًا بشكل غريزي لا عقل يحكمه.. إنها حمى الإدرينالين هي وحدها التي أنستني الألم الذي كان ينهش لحمي، وأنا مهرولة هاربة من السنة النيران والبلاستيك الذائب.. ومن قدر.. كمن لي في مكان وموعد لم أتوقعه قط.. ارتفع صراخي وعويلي وأنا أفقد قوتي شيئًا فشيئًا.. وفي المنظر موت أكيد.. وخارت قواي وقد شعرت بقمة الألم وبالمدوار بعدها حتى اختنقت أنفاسي فلم أعد قادرة على الصراخ أكثر.

وصل زوجي خلال ذلك وسمع ما كان مني، ولكن إنقاذي استغرقه الوقت القصير الذي احترق خلاله معظم جسدي.. فلما كسر الباب ودخل كنت أنا قد فقدت الوعي.. بل ولم أفق بعدها إلا بوقت طويل.

قضيت أربعة شهور في الإنعاش لا وصل لي بالدنيا.. غير الألم المضمن.. وكوابيس من أحداث الماضي.. تخترق ذاكرتي وترهقها.. صوت أمي لم يفارقني وأنا بين الموت والحياة.. كانت تحدثني وأسمع بكاءها ودعاءها أو كما تصورتها تحضرني بين حين وآخر.. لقد عادت إليّ كل الذنوب التي ارتكبتها في حقها قبل زواجي.. عبر نوبات متعبة وشاقة، منذ رفعت يدي بوجهها وعققتها.. منذ صدمتها بابتها الوحيدة وتخلّيت عنها وهجرتها؛ كي أرتبط برجل ثري في سنّها.. متزوج ورب لعائلة، فقط لأنه ثري.. مرورًا بخيأتي وذلك الزواج الذي تبينت حقيقته بعد الأوان.. إلى يوم القصاص.. إلى لحظة الحادثة.

نعم لقد كنت مذنبه بما فيه الكفاية، كي أنال ذلك الجزاء، فالمرأة التي سلبتها زوجها.. هي سيدة من معارف أمي.. وقرية منها كأنهما أختان.

هكذا كان ذهني المتعب يئن طوال الوقت، ويعود فيطرق مصغياً
لهمس في جواربي، وأنا ممددة لا أرد.. كأن أُمي كانت تمسك بيدي
وتحدثني طوال غيبوتي، وتسألني أن لا أموت.

صمد الجنين في بطني طيلة ذلك؛ إذ استطاع بقدرة عظيمة
أن ينجو.. فقد تمكن الأطباء من إنقاذه في الشهر السابع.. وكانت
معجزة حقاً أن بدأت أعود شيئاً فشيئاً إلى الدنيا.. وأنا أم وطفلي تحت
الرعاية.. كانت سرّاً عظيماً.. يستوقفني كلما عادت بي الذكريات..
يجعلني أتأمل قدرة الله العظيم، فلما أن كتب لي الرجوع من جديد،
أفقت ذات ليلة على إثر رغبتني في الصراخ أن:

«دعوني».

أخاطب بذلك من هم حولي.. كأنني شعرت بأنهم سبب الألم
الذي أعانيه.. فصرت أردد ذلك بشق النفس وأنا لا أقوى على الصراخ،
وقد اختفى صوتي لا يكاد يبرح حلقي.. بينما كان هؤلاء الأشخاص
في خدمتي يسهرون على علاجي.. ملتفين حولي بشبابهم البيضاء..
أحاول جهدي تبين ملامحهم.. فلا أقوى.. ونظرت من حولي إلى
أضواء ساطعة وخيالات أشباح تجوب المكان، تبين لي بعد ذلك أنهم
ممرضون وأطباء مناوبة يتفقدون أسرة المرضى ويحصونهم، ومنهم
طبيب وممرضون عند سريري وعلى رأسي يقومون بعملهم.. جعلت
أغمض عيني بين حين وآخر.. والطبيب يفتحها بيده ويضرب خدي
بلطف وهو يخاطبني محاولاً إيقاظي فأفقت، وانتهت غيبوتي حين
قال خلال ذلك:

«حمداً لله على سلامتك.. أنت بخير لله الشكر والمنة..».

وأنا أسمع بوضوح، عدت أدراجي إلى الحياة.. أتأمل هذا الجسد الملتف في ضمادات وشاش لا ينتهي، وأوجست في نفسي خيفة مما قد يعنيه ذلك.

نُقلت بعدها من الإنعاش إلى غرفة أخرى لإتمام علاجي، ومخاوفي على حالها.. فلما أن بدا لي ما كان مخبأً تحت الضمادات.. ونزع ما كان يلف أطرافي منها؛ عرفت ما آل إليه حالي خسرت جمالي.. كما خسرت أهلي وشبابي قبله.

ولاحظت زوجي وكيف تفاجأ لمنظري.. لما رأي أول مرة.. بعدما بدا جسدي، وهو يحاول أن لا يظهر منه ذلك، ولكنني قرأت في عينيه ما كان عليه من يأس وملل من أن أعود كما كنت.. فكان يتردد علي وأنا أدري أنه إنما يفعل ذلك لرفع العتب، ولقد رأيت في ذلك منه شفقة لحالي.. كانت أكثر ما استطاعه أيامها. فكنت أقول في قرارة نفسي كلما رأيته:

«لا عليك.. سأجنبك الحرج الذي أنت فيه».

تملكني شعور رهيب بأن أتخلص من نفسي وأنتهي من كل هذا العذاب؛ فلقد خسرت كل شيء كما حدثتني نفسي أيامها.

طبيعاً كنت قد تخطيت الخطر، ولكن ذلك لم يكن ليعني لي شيئاً ونفسي حطام! ولقد رددت في سر أخاطبني وأنظر إلى المرأة لأول مرة وأنا في غاية اليأس والإحباط!!:

(١) سأخلص المرأة من منظرك الكئيب.. سأخلص الدنيا من شر استيطان داخلك طويلاً.. ملتحقاً بحسنك الأخاذ.. مختبئاً وراءه.. متربصاً بالعابرين حياتك.. الآن وقد فقد جسدك أخيراً غطرسته! وفي تلك الحروق أشباح من الماضي.. كأنها أدعية قديمة عليك.. كأنه

السخط الذي كظمه المتعبون من كبرك طويلاً.. كأنها والدتك.. ردت عقوقك لها أخيراً! كأنك انتهيت.. فلماذا تطلع الشمس بوجهها الدافئ الجميل يوماً آخر على هذا الجسد المترامية أحزانه؟!..

في أرجاء ذلك المشفى الشاحب.. بإمكانك أن تشم رائحة الموت في أية لحظة! المتعبون من حولي زادوا من سأمي ومللي ورغبتي في الاختفاء، وحدها الممرضة التي كانت تدخل علينا الغرفة وهي تبسم وتنط بيننا تحاول أن تزرع بعض الأمل في نفوسنا المتعبة، فكانت تأتي إلي لتحدثني، وهي تحاول معي كي تخرجني من انكساري وكآبتي تلك، ولكنني كنت أظل على صمتي وحزني.. لا أرد عليها.. ولا أسمع معظم ما تقول.. لطالما رددت وهي تخاطبني:

(١) ستخطين ذلك يوماً.. كوني قوية فقط..)

بينما أجيها في سر وكلي يأس وتعب:

(٢) أنت في صحة وعافية.. ما أدراك بالحال الذي أنا فيه؟!..)

وكنت لا أنظر إليها إلا أن تجرب الوقوف أمامي مباشرة بقامتها المتوسطة وجسمها الممتلئ.. متعمدة بذلك أن تجذب انتباهي.. فيظل طرفي ذابلاً.. مشغولاً عنها واما كانت تحاوله جاهدة معي كي أتأقلم.. حتى قالت لي مرة:

«امرأة كانت تزورك أيام كنت في الإنعاش برفقة زوجك، وأخرى كانت لا تنقطع عن المجيء كل يوم، فتبقى بالقرب منك وقتاً طويلاً تكلمك وتبكي، وهي على الأغلب والدتك».

رفعت طرفي نحوها لأول مرة أرى وجهها المستدير الحنطي.. أتأمل عينيها الواسعتين السوداوين وأقرأ عليهما أخباراً عن حبيبتي..

وأناشدهما أن تقلاني حالاً إلى ما رآته من أمر أمي.. كيف جاءت؟
وماذا كانت تقول لي وأنا غائبة عن وعيي؟

فواصلت تخبرني وهي تصف أمي وعطفها وذلك القلق من
فطرة الأم الحنون على ابنتها التي لا ترد عليها، وصفت بكاءها وكلامها
ودعاءها ومحطات في حديثها تعيد ذاكرتي إلى الوراء؛ لأن ما تخبرني
به الآن مر بذهني وعلى سمعي من قبل وعشته حقاً وشعرت به.. حتى
وقد كنت لا أرد ولا أستجيب.

أمي التي كنت أسمع صوتها وأنا غائبة عن الدنيا.. لم يكن ذلك
مجرد هلوسات جراء غيبوتي.. بل إنها حقاً كانت معي.. آه مما انتابني
حينها وهي تخبرني بذلك وأفلتت مني شهقات وبكاء مفاجئ كالسيل
ما كنت لأرده!.. كحمام يتطاير هارباً من حضن القفص العتيق.. بل
كحمم يلفظها البركان بعد مخاض عسير! حتى تفاجأت الممرضة
وأقبلت نحوي فضمتني وجعلت تواسيني وتقول:

(١) هوني عليك يا أختي.. ستشفين وقد تخطيت الكثير حتى
الآن.. فلا تكوني ضعيفة وواصلني.. أنت قوية.. ستعودين إلى حضن
أمك وأهلك ومن تحبين فاصبري..

أنى لي أن أرى أمي بعد كل ما اقترفت في حقها.. أنى لي أن
أجعلها تراني ولقد فاقت أذيتي لها كل التصورات؟! فكيف أزيدها فوق
الوجع وجع رؤيتي هكذا؟ آه من نفسي وقسوتها التي لم تبق لي عذراً
في استرداد حضنها وعطفها اللذين أحتاجهما الآن أكثر من أي وقت
مضى!

وعادت فكرة الانتحار تطرق بالي من حين لآخر وقد صرت

أكره نفسي حقًا، وأستاء منها، وأبحث عن سبيل لذلك، وعن فرصة أتجنبها، ومكان أتخلص فيه من نفسي بعيدًا عن كل من قد ينجيني أو يخلص هذه الروح المقيمة مني ومن هذا الحقد الرهيب نحوها.

جلست على سريري ذات ليلة وقد تحسنت حركتي إلى حد ما، فجعلت أطلع الغرفة التي كنت فيها ويالكآبتها وحزنها ذاك! كانت رابع ليلة لي فيها بعدما نُقلت من الإنعاش.. كرهت أن يتكرر ذلك مرة بعدها.. كرهت رائحة المكان.. كرهت وجودي فيه.. كرهت دقائق الساعة التي كانت تضرب الحائط كأنها تعدنا بالمزيد من الوقت هناك.. أنا.. وامرأة على سرير مقابل.

تعودت أن أراها هادئة لا تشتكي من شيء تلك المرأة معي بالغرفة.. ولا أسمع منها إلا همسًا تكسر به ظلمة الليل كلما أمسينا.. وأحيانًا يطول بها ذلك كأنها تكلم أحدهم.. فلما أطرقت أنصت إليها ذات ليلة وقد أفقت على وقع همسها فجأة! وجدتها تذكر الله.. والليل على وشك أن ينتهي، وشهدت وقد عادها رجل برفقة أطفالها ذات صباح كيف سعدت وجعلت تضمهم وتقبلهم في حنو عظيم، ورأيت طفلًا كان أصغر أولادها حاول السيد أن يدينه منها بينما اختبأ الطفل خلفه لا يريد أن يقربها.. مستغربًا أن تكون أمه بعد الحال الذي آلت إليه.. إذ كان وجهها غارقًا في خدوش وكدمات تخفي معظم ملامحه، بينما أومأت المرأة للسيد أن دعه، ودمعها قد تحجر على حواف عينيها يكاد ينزل! لم يكن الرجل زوجها حسبما بدا لي وكما قالت الممرضة التي حضرت معي هذا المشهد.. إذ التفتت نحوي وهي بالقرب مني مشغولة بعمل ما.. وهمست بهدوء تخبرني:

«هي خادمة في بيته، وهو يكفل أبناءها منذ ما حدث لها إذ تعرضت لحادث مثلك، وتعاني أزمات صحية أخرى.. كان الله في عونها».

قالت كلامها، فرددت عليها بعد برهة صمت مني ولأول مرة.. فلم أشعر إلا وقد قلت لها:
«آمين».

ابتسمت الممرضة وقد استحسنت ذلك مني، وأنهت ما كان عليها ثم انصرفت.

غادر الرجل الغرفة برفقة الصغار، وبقيت أتأمل المرأة بعض الوقت تمسح دمعاً تنائر من عينيها بعد انصراف صغارها، وقد أمسكت بهيتين قويتين ثابتتين كأنهما تتحديان الحزن في شموخ عظيم، ثم همت بالنهوض والاعتدال كي تجلس على فراشها وهي تجلب شيئاً من تحت اللحاف فكان حجراً صغيراً تيممت به وصلت وهي في مكانها، وأنا أنظر إليها دون شعور مني.. كأنها سحبتني نحوها في تلك اللحظة بعفويتها وهذا الاطمئنان الغريب الذي كان حولها وعلى وجهها، رغم كل الألم الذي وصلني من دمعها المنساب قبل لحظات، وانغمست فجأة في صمت طويل أحاط بنا.. - أنا وهي -، بعدما خلصت من أداء فرضها، فجعلت أنصت إليها وقد استرسلت تذكر الله وتتلو من الأدعية ما بعث في روحي طمأنينة وسكينة، وشعرت لسماعها براحة نفسية حلقت بي بعيداً وأنا أكابر هذا الهم المقيم الذي جثم على صدري ليال وأيام، وإنني كذلك حتى غفوت كطفل رضيع هدأ فجأة بعد نوبة بكاء طالت به وأنهكت جسده الصغير النحيل المتعب.

أفقت عشيتها كأنني أنام للمرة الأولى منذ ما حدث لي، وفجأة سمعت حركة أناس بالرواق قادمون نحو الغرفة التي كنت فيها.. ظننت بادئ الأمر أن السيد عاد للمرأة بأولادها ولكن الزوار الذين قدموا جاءوا لأجلي أنا، فبهت وأنا أرى الممرضة تدخل علينا برفقة السيدة التي صارت ضررتي فجأة وأمي، وبالرؤيتي أُمِّي تدخل علي وهي تمشي على عكاز!

التقيت وأمي لقاءً تراجيدياً يصعب وصفه.. بعد فراق عام ونصف وأحداث مزقت ما بيني وبينها أي ممزق.. نظرت إليها مشدوهة ببصر شاخص.. تتعثر في مشيتها والسيدة تمسك بيدها.. وفي يمينها عكاز تستعين به، كأن رجلها لا تحملانها، وهممت بالنهوض عن سريري إليها فشلت رجلاي.. ولم أستطع.

بكأوها.. عثراتها.. خطواتها المتعبة نحوي.. تكسر عظامي كأنها تمشي عليها، وتؤلم روحي وتجلدني جلدًا على ما فرطت في حقها وما اقترفت.. انحنت نحوي ورمت عكازها ودنت فعانقتني عناقًا طويلًا.. أذابني في حضنها.. تبكي وأبكي وقد انتهيت بين ذراعيها محطمة لا أقوى على الرد، ولا على كبت الشهقات التي تعالت مني ومنها، واصلت بكاءها وهي تطوقني وتقول:

«ماذا فعلت بي وبك يا حبيبتي؟! ماذا فعلت بي وبك يا قطعة من روحي أخذتها.. وابتعدت عني؟! أديتُ دور الغاضبة عليك وروحي لا تزال أمّا لك، وانتظرت طويلًا أن أتعافى لأتني إليك.. كي أرى وجهك من جديد.. لم يعد مهمًا عندي من قصرت في حق من.. ومن عليها أن تطلب الصفح والمغفرة».

سحقتني بكلامها، ونثرتني عبر أرجاء المكان أبحث عن ملجأ
لبقايا هذه الروح المذبذبة.. العاقبة.. شعرت أنني لا أستحق هذا الحزن
والاحتواء.

طال بنا الموقف وأمي تتحسس جسدي وتلمس أطرافي
والحزن باد عليها.. تحاول إخفاءه من حين لآخر إذ تسكت تارة وتقول:
«ستعافين.. ستعودين كما كنت يا قرة العين».

وتعود فيغلبها الدمع لتمسحه بأطراف خمارها كل حين.
المرضة واقفة إلى جوار السيدة تبكيان والمرأة رفيقتي بالغرفة تنظر
إلينا وهي لا تكاد تفهم الموقف، متأثرة مغرورة العينين تردد من حين
لحين:

«يا الله!..».

حتى هدأنا.. وصارت أُمي تمسح وجهي وتحمد الله.
وقلت بصوت متحشرج أحاول لملمة سُؤالي، وقد رفعت
وجهي نحو أُمي في ذل رهيب:

«ما ذا.. ماذا حصل لك يا أُمي؟ ولم العكاز؟».

فاستجمعت قواها كي ترسم لي شبه ابتسامة.. تشق طريقها
بصعوبة على وجهها المتعب.. لأطمئن وهي تجيبني:

«أنا أتمائل للشفاء يا حبيبتي.. لا تهتمي».

ثم سكنت وأردفت تقول:

«المهم أنت.. هل زال ألمك؟ آه من ليال كنت أراك فيها تتألمين
وأنت غائبة.. أسألك ولا تجيبين».

لم أجرؤ على النظر طويلاً إلى السيدة معها.. طأطأت رأسي،
وقد بدا من إشفاقها ما كان يكسر غيظها كل حين، حتى اقتربت وقالت
لي:

«حمداً لله على سلامتك».

بينما منعني خجلي منها أن أرفع رأسي إليها.. جعلت أشيح
بوجهي عنها جانباً وقائل في نفسي يردد: لماذا تفعلين بي ذلك
يا سيدتي؟!!

كرهت نفسي كثيراً لحظتها، وطال بي الشroud وقد انصرفت
السيدة خارج الغرفة كأنها لم تستطع أكثر من ذلك معي.

ما كان ذنبي ليسعه الغفران!! وأنا أرى أُمي بتلك الحال.. هكذا
كان جل تفكيري طوال الوقت.. أعتبر نفسي اللئيمة الوحيدة بينهم..
كلهن يكيّن لأجلي، ويسعين لرفع التعب عني وأنا لست أهلاً لهذا
أبداً.

ذهبت أُمي وقد جاء الطبيب ليفحصنا، ورأيت في عينيها قبل
أن تغادرني رغبة في البقاء إلى جانبي حتى آخر يوم لي بذلك المشفى،
ولكنني قررت أن يكون ذلك آخر يوم لي بالمشفى والوجود كله.

أنهى الطبيب ما كان عليه وأمر بتنظيف المكان، فجاءت
إحدى العاملات بهذا المجال وفي يدها سلة ملئت بقارورات من
مواد التنظيف المختلفة.. كانت تستخدمها في مكان ما قبل أن تدخل
علينا.. وتضعها على يساري قرب الباب.. أخذت تلتقط بقايا الأكل من
حولنا.. وما تجده من علب الدواء أو الضمادات المستهلكة.. وغيرها
من النفايات.. ثم شرعت في مسح البلاط وأنا شاردة ببصري نحو

السلة.. أين قرأت على إحدى العبوات بها كلمة (خطير!).. وبنظرة حقد يائسة جدًا.. تبادر إليّ حالاً أن تكون هذه المادة الخطيرة وسيلتي كي أتخلص من نفسي.. وأنتحر! تحينت فرصة خروج المنظمة لحظة.. أثناء أداء عملها.. قبل أن تعود ثانية.. فنزلت عن سريري ببطء وحملت القارورة والمرأة التي كانت معي بالغرفة.. ممددة على سريرها نائمة.. كانت مادة حارقة مما هو مخصص لتنظيف البلاط والرواسب والرخام.. أخفيها بين أغراضي في حقيبة لي، وعدت إلى فراشي وقد استعجلتني المنظمة.. إذ سمعت حركتها عائدة.

أنهت ما كان عليها وانصرفت تلك العاملة وهي لا تشعر بما فعلت، والتزمت مكاني أنتظر أن يمضي الوقت ويهدأ المكان.. كي أفعل فعلتي وقد يئست من كل احتمال بالرجوع عن هذا التفكير الرهيب.

وأسدل الليل ستارة سوداء! وأنا على صمتي منذ انصراف من زاروني، لا أفكر إلا بهذا الأمر حتى أفاقت المرأة من نومها فجأة.. فنظرت نحوي ثم اعتدلت وهي تلقي السلام علي.. وتسالني: «كيفك الآن؟».

فأجبتها بروح متعبة جدًا:

«كأسوأ من أي وقت مضى!».

استنكرت مني ذلك فقالت وقد نفرت من إجابتي:

«لا يا امرأة.. استغفري ربك ولا تقنطي».

ثم أردفت وهي تحمل مسبحتها التي لا تفارق يدها:

«الحياة أهون من أن تذرفي عليها دمعة واحدة.. انظري إلى هؤلاء الذين ينامون مثلنا على أسرتهم في الغرف المجاورة.. وفي أماكن أخرى.. أتحسبهم أحسن منا حالاً؟ بل أتحسبهم أقل مني ومنك همًا وألمًا؟ إن منهم لمن يرقد منذ شهور لا يجد من يفتقده.. وإن منهم لمن ينخر الألم عظمه ليل نهار ولا يملك إلا أن يصبر! من نظر إلى بلوى الناس يا ابنتي! هانت عليه بلواه.. فهووني عليك واستغفري الله العظيم!». قالت كلامها وهي تكابد ألمًا ما! إذ تسكت بين الحين والآخر وتضع يدها على صدرها وهي تستغفر. لا زلت أذكر ثباتها إذ تكلمني.. ولقد شعرت ليلتها أنها ليست على ما يرام.. حتى ساءت حالها حقًا وتردت فجأة.. فجاءها الطبيب والممرضات واهتموا لأمرها إلى أن استقرت ونامت ثانية.. ولم يكن من عاداتها أن تنام قبل صلاة العشاء. وانتظرت أنا أن يهدأ المكان.. كي أفعل فعلتي.. فلما أن ساد الهدوء وكدت أفعلها أفاقت المرأة ثانية.. وكعادتها جعلت تهمس في طمأنينة ويقين، وقد مضى هزيع من الليل..

صوتها الذي كان يتسرب كماء طاهر.. يغسل مسمعي من صوت لعين يحرضني على الانتحار.. رافقني طوال الليل، وهي تذكر الله ولا تنقطع، وقد سمعتها تتلو من القرآن ما اهتزت له جوارحي.. فقرأت يس.. وكررت المعوذتين والإخلاص، وأنا أبكي مترددة بين الفكرة السوداء وذكرها والصمت الطويل.. حتى قررت الخروج من الغرفة بحثًا عن ركن أتصرف فيه بحرية.

سحبت جسدي المنهار تاركة مكاني.. ومشيتي يثقلها التراجع من حين لآخر.. كلما استوقفتني محطة من محطات مناجاتها..

وأدعيتها الرءوفة تلك.. كيد ناعمة تمسك بي وتلطف بروحي من قسوة استفحلت بقلبي فجأة، وتسألني العودة عن هذا الذي أسعى إليه.. تابعت سيرى ببطء والقارورة في يدي.. أصغني وأبكي وأتعر وقد هممت بالخروج من الغرفة غير أكيدة بادئ الأمر من أنني سأفعلها، ولكن الأفكار السوداء التي تراصت برأسي لحظتها أبت إلا أن تغلق الأبواب والمنافذ التي تبقت لي.. وتدفعني وأنا لا أشعر حتى غادرت الغرفة وصرت في آخر الرواق!.. أين انتهى النور الاصطناعي الشاحب على امتداده.. ودخلت عتمة ركن صغير حيث تنتهي كل الغرف.

جثوت على ركبتي أبكي وأفتح العبوة وصوت المرأة لا زال يطرق مخيلتي.. فأهم بالشرب ثم أتردد.. طال بي ذلك حتى شعرت بشخص ما خلفي فكانت تلك الممرضة الطيبة في أعقابي ولم أنتبه لها إذ أمسكت ما كان بيدي وأنا أصرخ.. دعيني.. إلى أن أفلتته.. ثم أخذت تهدئني وتسحبني نحوها.. بينما لا زلت أقول بصوت مختنق متعب للغاية:

«أريد أن أموت.. اتركيني».

وهي تمسك بي، وتبعد القارورة جانباً.. ثم شدت ذراعي تدعوني للنهوض.. محاولة جهداً أن لا يحدث مني ضجيج يجلب الآخرين. كنت في غاية الإحباط.. لا أكاد أقوى على النهوض، وهي تغالب صدي لها.. حتى سحبني من يدي.. رغم إعراضي.. فقالت لي بهدوء:

«تعالى معي فقط».

وجذبتني فسارت وسرت أتبعها كأني طفلة.

اتجهنا نحو مخبر صغير هنا بالقسم ذاته.. كان مقفلاً.. فتحتة..
ودعنتي للدخول.. ثم أجلسني على كرسي وعبأت كوباً من الماء
أحضرتة لي.. وجلست إليّ فأمسكت بيدي تقول:
«اشربي».

ففعلت وتابعت تسألني:

«كيف تشعرين الآن؟».

نظرت إليها أريد أن أتكلم ولم أستطع حتى قالت لي:

«لا بأس.. ارتاحي».

ثم أخذت تحدثني بمثل ما حدثني به تلك المرأة معي بالغرفة
هذا المساء، وإنها كذلك.. تحاول التخفيف عني حتى سمعنا حركة
بالرواق، قفزت الممرضة على إثرها تستطلع ما يحدث.. فوقفت
بالباب تشير بيدها وهي تتساءل:

«ماذا هناك؟».

لترد عليها إحدى زميلاتهما:

«كنت أبحث عنك.. تعالي بسرعة».

نظرت إلي برهة فلم تشأ أن تتركني وحدي، ثم ما لبثت أن
غادرت على عجل. بعدها بلحظات ازدادت الحركة والهمس خارج
المكان الذي كنت فيه.. فقممت عن مجلسي وخرجت أستطلع الأمر.
رأيت الممرضات يترددن على الغرفة التي كنت فيها.. فعرفت
أن المرأة معي بالغرفة قد حدث معها أمر ما، ولم أشعر إلا وقد سرت

بيطء.. أقترَب شيئًا فشيئًا.. فلما صرت بباب الغرفة وقفت أنظر.. والمرأة ساجدة والممرضات حولها! في منظر لم أعتده منها.. إذ كانت لا تقوى على الحراك فتصلي وهي جالسة على سريرها.. منذ اجتمعنا هاهنا. تقدمت نحوها.. وأنا لا أكاد أفهم وإحداهن تقول:

«منذ دخلت عليها وأنا أنتظر أن تقوم من سجودها كي أناولها حققتها المعتادة.. فلما جئت أتحنس حالها وجدتها لا تتحرك!».

دخل الطبيب مسرعًا، فدنا منها أيضًا وجعل يفحصها وهي ساجدة ثم كبر، وأمر بجلب فراشها على الأرض بالقرب منها وبحملها إليه.. فحركاتها الممرضات بلطف وهي على هيئتها حتى وضعوها فوق الفراش، وعاد الطبيب يفحصها.. كأنه يريد التأكد من أمر ما.. حتى قال:

«لا إله إلا الله.. توفيت ساجدة!».

ارتفعت تسبيحات من كن معي، وجعلن يكبرن والطبيب أيضًا.. وقفوا حولها ليكون في منظر مهيب لم يسبق أن رأيت مثله أبدًا! وأما أنا فقد ارتجت الأرض من تحتي رجًا حتى سقطت ورأسي ذليل إليها.. لا أكاد أصدق ما كنت سأفعل بنفسي قبل لحظات.. بينما كانت هذه السيدة تحضر نفسها كي تلقى الله العظيم ساجدة!

كانت تلك الحادثة بمثابة ميلاد جديد لي.. كأنها لفظت على الفور امرأة كئيبة بائسة من داخلي.. ورمت بكل ما يملؤني من حقد ومقت وآهات.. أو شكت أن تودي بي إلى تهلكة لا ريب فيها.. لا زلت مغشيًا علي.. وجبيني إلى الأرض، وطوفان الدمع يهطل آخذًا بيدي إلى ملكوت الواحد القهار.. ألتمس هذا الطهر من سجدة أظنها لن تكون

بقيمة السجدة التي سافرت عبرها تلك المرأة العظيمة! ألتمس العفو والغفران! آه من نفسي عندما انتابها القنوط من رحمة الله وفضلت الذهاب غير بريئة! وجعلت أردد وقد غبت عمن حولي وقتًا طويلاً:

«لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين».

أقولها وأعيدها ولقد انسلخت عن بقايا هذه الدنيا الفانية إلى رب عظيم؛ غمرني بلطف منه أن كتب لي الحياة مجدداً.. حتى أفرق بين الخاتمتين وأستدرك نفسي.. كلنا سننتهي يوماً ولكن كيف؟ قضيت ما يقارب الربع ساعة على حالي.. ثم رفعت بوجهي صوب السماء ويدي أنضرع، وأنا لا أملك أن أهرب من الله إلا إليه.. وإني كذلك حتى ربتت على كتفي تلك الممرضة تبكي وتبتسم تارة؛ إذ رأني أعود إلى رشدي وهي تلمس خيراً فيما عساه يكون بعد هذا.. فقالت بصوت مختنق:

«لا أدري كيف اطمأنت نفسي وإن كنت قد تركتك وحيدة وقد أوشكت على».

ثم سكنت لا تريد أن تذكرني بما كدت أرتكبه قبل ساعة من الآن.. وأضافت:

«لا بأس، تعالي معي لترتاحي على سريرك».

فأشرت لها بيدي أن تدعني قليلاً.. وأنا أنظر إلى جثة تلك المرأة هامة في وقار.. والنور يحيطها كأنها ملاك! غير آبهة لما كان يحدث من حولي غيرها.. وهذا الهدوء الذي التفت فيه نفسي فجأة.. كوشاح ناعم لملم روعي بعد عراء خريفي طال بي وحيدة.. بل.. كقميص يوسف ألقي به على بصري فجعلت أرى الدنيا على غير عاداتها فجأة!

تلك التراتيل التي كنت أصغي إليها.. وهي تتسرب إلي عبر صمت الليالي التي قضيتها معها.. تمثل أمامي كلها الآن.. لطالما ألحت على ربها في جنح الليل أن يرزقها حسن الخاتمة.. فاستجاب لها.. طال التأمل بي وقد ألقى برداء أبيض على جسدها الطاهر وكتب التقرير بوفاتها. مضى وقت.. قبل أن يحضر ذلك السيد الذي كانت خادمة في بيته، وقد تم استدعاؤه، ليحضر إجراءات إخراجها من المشفى.. تذكرت أطفالها.. رق قلبي وأنا أسترجع وجوههم بالواحد، وأستحضر أطياهم حولها.. وصغيرها! يا الله! تذكرت ما أخبرتني الممرضة عنها.. استرجعت كل شيء رأيته يخصها.. صلاتها، هدوءها، وقطعة الحجر الصغير.. استأذنت الممرضة في جلبه لي.. فلما كان بين يدي تيممت.. وقد ارتفع أذان الفجر في انتظار أن نصلي الصبح ونلج هذا اليوم الجديد.. كأنني أعد نفسي بالرجوع ثانية بقلب قوي لا تغلبه المحن.. هكذا انطلقت صوب مستقبل أوكلت أمري كله فيه لله وحده.. لا أخاف شيئاً، ولا أرفض ما يأتيني من أمره أروض نفسي على الرضا والثبات.

انبتق الصبح، وأخذ النور يتسلل عبر النوافذ والممرات إلى أرجاء المكان.. كمسافر عاد يتفقد ما حدث في أثناء غيابه.. وانفض من كان حولي من الممرضات بعد حمل جثمانها.. بقيت وحيدة لولا ممرضة تتردد علي والمنظفة وقد جاءت كي ترتب المكان لهذا اليوم الجديد.. الكل يتحدث عما حصل بهذا المكان ليلة البارحة.. فقلت في نفسي وقد طال التأمل بي.. لو أنني فعلتها حقاً وانتحرت لحظتها.. لقليل عن أخبار هذا المستشفى لنهار اليوم.. امرأتان توفيتا ليلة أمس.. إحداهما انتحرت.. والأخرى ماتت ساجدة.. يا إلهي! صرت أفكر في هذا وأعود فأخفي وجهي بين يدي وأستغفر بعمق.. وإنني كذاك حتى

دخلت علي أمي ثانية تحمل صبيًا وتبتسم.. فلما وصلت إليّ وناولتني إياه ما كنت لأصدق أنني قد نسيت صغيري! ورحت أقبله وأشم ريحه ودمني يغلبني كعاداته وأمي تضمنا معًا.. فصرت أسألها وأبكي: «كان معك طوال الوقت؟».

وهي ترد علي بحنو عظيم:

«نعم يا حبيبتى.. كان معي طوال الوقت بعدما انتهت فترة العناية الطبية به.. وإنني لأجد ريحك فيه وأستشعر رجوعك إلي كلما احتضنته.. كم كان أُملي بالله كبيرًا وأنا أحدثه بأنك ستعودين إلي وإليه.. وها أنت بين يدي يا كل أُملي».

انقضت أيام بعدها وأنا أستجمع قواي لأعود إلى الحياة من أجلها ومن أجل ولدي، فكان قرار الطبيب بخروجي من المشفى خبرًا جميلًا جدًا وهو يفحصني ويقول:

«صار بإمكانك العودة إلى أهلك.. ولتواصل العلاج على مراحل لتزول آثار الحروق.. وإن كانت ستأخذ وقتًا طويلاً».

سعدت لهذا كثيرًا ونفسي تحدثني أنها بداية لي وكأنني أولد من جديد.. وغادرت المكان برفقة أمي ذات صباح وأنا أصدق به متدبرة.. تاركة تلك الذكرى الأليمة خلفي راغبة في حياة أفضل أو بالمعنى الأصح.. في امرأة أفضل بكثير مني قبل أن أدخل هذا المكان الذي ظننته آخر محطة لي بعمرى.. وعدت إلى بيتي.. وأواجه ما تبقى لي من تصرفات هذا الزوج الذي لم يعد يراني جميلة حتى استطاع أن يقف على عذر له.. كي يطلقني ويعيدني إلى أهلي ولكنني لم أكن خائبة هذه المرة.. تركت ذلك الرجل الكهل لزوجته وأهله، كان علي

أن أتحمل نتائج أخطائي.. فلم أشعر إلا وقد عدت مطلقة بطفلي إلى بيت والدتي؛ حيث رأيت أن علي أن أرتب ما تبقى من حياتي على نحو صحيح يليق بي وبهذا الولد الذي أمني الله عليه، ولقد سرت به إلى بيت الله الحرام وأمي معي أخدمها بكل ما أملك؛ لأغسل روحي من كل ما أتعبها وألتمس في قربي من ربي شفاء لا يغادر سقمًا.. وأنا سعيدة بما أنا عليه من حال الرضا.. أن من الله علي بهذا؛ لأبث حزني وأدعوه لعل ما ابتلاني به كان لحكمة ما غابت عني طويلًا.. وإني لأنظر إلى الكعبة الشريفة لا أكاد أصدق أن قد منّ الرحمن علي بهذا، وكتب لي الحياة كي أقف بين يديه وأطلب الصفح والمغفرة.
